تأليف العلامة/ نور الدين عبد الله بن حميد السالمي رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وعلى آله وأهل الصدق والوفا أما بعد:

رسالة السالمي رحمه الله المسماه "اللمعة المرضية من أشعة الاباضية" فهي كاسمها لمعة تبهر البصر وتدهش الفكر وتعبر عن سالف المذهب الإباضي بما يشبه الجوهر والدرر ، أبان فيها رحمه الله من معالم المذهب ما تهتدي به العقول وتبتهج به من أهل العلم الفحول ، فهي لمعة من أشعة وهي درة في حسنها غالية الثمن ، وكان في بعض الأيام الماضية حاول طبعها الشيخ الأخ أحمد بن سعيد بن ناصر الكندي ، فوضعت لها مقدمة تمهيدية وقصيدة شعرية غرا تعبر عما تحتوي تلك المرضية وما لدى مشعها من المراشد العلية ، ولكن عاق عن طبعها اذ ذاك عائق فضاعت العملية في أصلها ، والآن قيض الله لها من يقوم بنشرها وهو السيد الأمير الفيصل بن علي بن فيصل بعناية من له الفضل العميم والمجد المؤثر السيد السلطان الجليل الذي قام بنشر المكارم العمانية على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها ، واقام لها وزارة خاصة لاحياء التراث العماني ، وتبرهن للناس عن الشرف العماني والفضل للمذهب الإباضي الذي ما زال منذ أربعة عشر قرنا سايدا لهذا القطر العزيز ، الذي ما زال ولا يزال يتتبع الحق في مضانه وتقييم أعمدة الفخر الخالد بعالي بنيانه.

شكر الله سعي جلالة سلطاننا ووفق السعادة للخير في أوطاننا والقوام بالأمر في عماننا ، وأرى العالم عمل الخير في بلداننا ، ووفق للصالحات عمل رجال المسلمين في أرجائنا ، وجعل ذلك كله ارغاما لأعدائنا. ولا يخفى أن خدمة العلم خدمة للشريعة على العموم ، وأن خدمة الشريعة خدمة لشارعها ، وأن إرشاد الأمة لصالحها عمل مبرور ، وأن القيام الملة سعي مشكور ، وانا لنكرر الثناء الطويل العريض المتواصل الذي أتاح الفرصة لاحياء التراث العماني وسخر له من يقوم بواجبه في هذه الآونة ، ولا شكر أن كل شئ مرتين بوقته ، وأن غربة الدين أخبرنا عنها سيد المرسلين وإمام النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه أجمعين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

سالم بن حمود في ثالث صفر الخير (1401)

بداية الكتيب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل اللهم وسلم وبارك على رسولك ، سيدنا محمد وآله وصحبه ، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأن الدين عند الله الإسلام ، سبحانك اللهم وبحمدك أنت الله لا إله إلا أنت ، خلقت الخلق وشرعت الحق ، وأنزلت الصدق ، وبينت الهدى ، وخوفت من الردى ، وأرسلت الرسل مبشرين ومنذرين ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة ، صلى الله عليهم جميعا ، وعلى سيدنا محمد خصوصاً ، وسلم تسليما كثيرا ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه لما اختلفت الأمة بعد نبيها ، إلى ثلاث وسبعين فرقة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذهبت كل فرقة منهم إلى مذهب ، وسلك كل في طريق ، وعاب كل فريق على الآخر ، ما إليه ذهبت ، وظنت كل طائفة أنهم أتوا الحكم وفصل الخطاب ، ويأبى الله أن يكون الحق إلا في واحدة ، وهي التي على كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وسنة الخلفاء الراشدين ، ألا وهم أهل الاستقامة في الدين ، المعروفون بالاباضية الوهبية المحبوبة ، كما دلت على ذلك الشواهد اللوامع والبراهين القواطع ، وقد اعترف لهم الخصم بذلك والفضل ما شهد به الغير.

فممن اعترف لهم قديماً عالم المدينة مالك بن أنس ، فإنه قال خطبنا أبو حمزة خطبة حيرت المبصر وردت المرتاب ، وأبو حمزة هو المختار بن عوف قائد جيش إمام المسلمين طالب الحق عبد الله بن يحيى الكندي رضوان الله عليهم ، وان أبا حمزة خرج بالجيش إلى مكة فاستفتحها ، ولاقته جموع الأعداء في قديد فمزقهم كل ممزق ، ودخل المدينة واستفتحها ، وخطب أهلها خطبة تناقلتها الألسن والأسفار ، أقام فيها الحجة وأوضح المحجة ، وعلماء القوم يسمعون ، ومن جملتهم مالك ، فما كان له عندهم جواب سوى ما قال مالك المقدم ، ومعنى قوله: " حيرت المبصر " أي: جعلت العالم المتبصر في مذهبه محتاراً ، حيث سمع ما لم يسمعه من الحجة والبرهان ، وقوله: " وردت المرتاب " ، أي: من كان مرتاباً في دينه ردته عنه إلى مذهب أبي حمزة ، ولولا خوف الإطالة لأوردت لك سيرهم على التمام.

وقد رجع إلى مذهبنا في الزمان القديم "خلف بن زياد البحراني" و "أبو النظر الخراساني" وهما من أكابر العلماء المبصرين وقد نقل الإعتراف به عن جماعة كثيرين من المخالفين ، قال القطب: (وقد أقر لي علماء الحرم أن دين الاباضية الوهبية خال عن البدعة) ، وقد تنبه لهذا المعنى السيد الجليل مصطفى بن اسماعيل المصري متعنا الله بحياته واستعملنا واياه في طاعاته فرجع عن مذهب الأشاعرة إلى مذهب الحق وهو أوسع أترابه علماً وفاقهم كياسة ، وها هو قد نصب نفسه داعياً إلى الله ، ينادي بلساني الحال والمقال وقد ألف الهدية الإسلامية في النصايح العامة وبث الخطب في صورة الجرائد لينتفع بها الخاصة والعامة.

وقد قال في هديته حين ذكر محمد بن أفلح إمام المسلمين ببلاد المغرب في الزمان القديم قال: " ولقد قام هذا الإمام بأهم واجبات العناية في احترام شعائر الله وصون الدين الكريم من أن يتطرق إليه دخيل العبث أو أن تمسه أهواء التعسف والركاكة والخلط في أقل القليل من أصوله وفروعه بعد أن تلقاه عن أبيه أفلح عن أبيه عبد الوهاب عن أبيه عبد الرحمن بن رستم الفارسي عن أبي عبيدة مسلم عن مرجع المسلمين أبي الشعثاء جابر بن زيد البصري العماني وهو من التابعين الأخيار أخذ العلم عن البحر الزاخر ابن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائشة أم المؤمنين رضي الله تبارك وتعالى عنها الذي لم يترك دقيقة من دقائق حياة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم في قيامه وقعوده وركوعه وسجوده وحديثه وصمته ونومه ويقظته ، وبجملة حركاته وسكناته حتى أسرار خلوته معها إلا واستوعب معرفته منها حتى كانت تتصبب رضي الله تعالى عنها أمامه عرقا من حرج السؤال وخجل الجواب ".

قال: " وكانت ولادته في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسنتين بقيتا منها قال وذلك أن عمر مات سنة ثلاث وعشرين من الهجرة فتكون ولادة جابر سنة إحدى وعشرين منها ، ومات سنة ست وتسعين ، قال وكان عمر مالك إمام المالكية سنة واحدة ، لأنه ولد سنة خمس وتسعين ، ومات سنة تسع وسبعين بعد المائة ، وكان عمر أبي حنيفة إذا ذاك خمس عشرة سنة ، لأنه ولد سنة ثمانين من الهجرة ، ومات سنة مائة وخمسين منها ، قال أما الشافعي فقد ولد في القرن الثاني سنة مائة وخمسين ، ومات لأربع بعد المأتين ، وولد ابن حنبل سنة مائة وأربع وستين ، ومات سنة احدى وأربعين بعد المأتين ".

قال: " فيستدل من هذا البيان أن مذهب الإباضية – نسبة إلى الإمام عبد الله بن أباض رضي الله تبارك وتعالى عنه وعنا وعن جميع من صلح من الأيمة الطاهرين الأخيار – هو أقدم المذاهب تاريخاً ، وأوثقها مصدراً ،

وأصحها تأويلاً ، وأحفظها للباب طاهرة الدين الحنيف ونقاوته وسماحته وزكاوته ، وعلى ذلك فليس ثمة مراء في أنه هو الطريق الحق الذي كان يمضي عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة معه ، وتلقاه عن جبريل عن ميكائيل عن اسرافيل عن اللوح المحفوظ عن الله عز وجل ، وأنه هو الصراط المستقيم الذي دعانا الله إلى اتِّـــــباعه في قوله تعالى: ((وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون)).

وأن أصحابه العاملين بما فيه هم المؤمنون حقاً أهل الفرقة الناجية التي عناها رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الصحيح: "بلوت اليهود فوجدتهم قد كذبوا على أخي موسى فافترقوا على احدى وسبعين فرقة كلها هالكة ما خلا واحدة ناجية ، وهي التي ذكرها الله تعالى في كتابه فقال عز من قائل: ((ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون)) ، وبلوت النصارى فوجدتم قد كذبوا على أخي عيسى فافترقوا على اثنين وسبعين فرقة كلها هالكة ما خلا واحدة ناجية وهي التي ذكرها الله في كتابه بقوله تعالى:)) ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون)) ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة ما خلا واحدة ناجية ، وكلهم يدَّعي تلك الواحدة" أو كما قال صلوات الله عليه ".

قال: " ولقد شهد بهذا الحق جميع الفلاسفة الفرنساويين الباحثين في الأديان الذين وقفوا بكياسة أبحاثهم وسلامة قياسهم على أن نقاوة الدين الإسلامي لا تنحصر إلا في مذهب اتباع ابن أباض ، ومن البديهي أن شهادة العدو هي أقوى الشهادات وأعدلها ، ولما جمعوا على صدق رجاله وشهدوا لهم بصحة الدعوى وغبطوهم عليها أخذت هيئة السلطة هذه الشهادة منهم مأخذ الثقة ، ولازمت تتابع تطبيقها على استقامة الرجال الإباضية في إقليم ميزاب بمراقبة تصرفاتهم في المعاملة المعاشية والمعادية فلم تجد لهم مثيلا من الرجال ؛ وإذ لم يصلها من قبلهم منازعات ولا ما يوجب مشغولية الحكومة بشيء من قبل أحوالهم الشئونية ، و لم تر منهم في سجونها ايثما ولا مجرما كما لم تعثر في سجلات المحاكم على اسم رجل من رجالهم تشمله قضية من القضايا المكدرة كأرباب السوابق ، الأمر الذي لم ينشأ إلا من احترامهم التكاليف الشرعية ودأبهم على التحلي بكمالات الصدق والوفا والأمانة والصفا والتناصر والتوازر على البر والإحسان فإنها لم تنثن عن لحظهم بعين الرعاية والتجلة ، واعانتهم على الظهور في وسط الهيئات الأخرى من أهل مذاهب الفرق وقدست أقوالهم وأحكامهم فهي ترجع إليهم في مشاعل الدين عن باقي الفرق المنتشرة في إقليم الجزائر ".

قال: " أما من رام استقصاء النسبة الإباضية بحذافيرها فعليه برسالة الأستاذ المكرم الشيخ عبد الله بن يحيى الباروني مرجع الإباضية في جبل فصاقو من أقليم طرابلس الغرب ، قال ومن تطلع إلى الوقوف على أبلغ مراتب الغيرة والحرص على العمل بدقائق كتاب الله والتوقي من البدع والأحداث فليطالع خطاب عبد الله بن أباض إلى عبد الملك بن مروان المسطورة درره وغرره في كتاب "مراشد التقية" للتقي الفهامة السيد قاسم بن سعيد الشماخي ".

قال: " ومن أراد أن يشرح المصدر بالحنيفية السهلة السمحة التي بعث بها أبو القاسم محمد بن عبد الله صلوات الله تعالى عليه ، وسلمت من عبث التأويل وخطأ التفسير والتعسف في التطبيق والقياس ؛ فعليه بتسريح الطرف في رياض أسفار هذا المذهب الاباضي الجليل في مستقر الشيخ الموقر محمد بن يوسف الاباضي بوكالة الاباضية في القاهرة بطولون هذا كلامه جزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً وحفظه من كل بؤس وضير ومن يهد الله فما له من مضل ".

وقد كان هذا المذهب المبارك – في الزمن الأول – منتشراً في جميع الآفاق والنواحي وأكثر أهله بالبصرة ومكة وعمان والمغرب واليمن وخرسان وكان أهل حضرموت كلهم على رأي أهل عمان وكان بعض أهله في الموصل ، ومن علماء المذهب فيها "أبو بكر يحيى بن زكريا الموصلي" رحمة الله عليه ، وبعضهم في مصر ومن علماء المذهب فيها "محمد بن عباد" وقد انتشر في المغرب انتشارا تاما حتى كانت الدولة في زمن الأئمة الرستميين تحكم على مسيرة ثلاثة أشهر لا ترى فيها إلا زاهدا وعابدا وقائما بأمر الله ، وقد بلغ جيش الإمام أفلح إلى ثلاثمائة ألف وأهل الخليل منهم ثمانون ألفا أو خمسة وثمانون واجتمع في زمان الإمام يوسف بن محمد بن أفلح ماية ألف فارس واحد عشر ألف فارس وهؤلاء من طائفتين من طوائف المغرب فقط وهم نفوسة ومزاتة وكثرت العلماء حتى انه قتل منهم في وقعة نانو أربعمائة عالم وفي وقعة أخرى ثمانين عالما إلا واحدا ووقعة نانو كانت في سنه مائتين وثمانين ، ومذهب الشافعي لم ينتشر كل الانتشار إلا بعد ذلك.

وكان أهل المغرب يحجون بالذرارى والنساء حتى انه ولد لهم في طريق الحج سنة واحدة ؛ ثلاث مائة مولود منهم "عمروس بن فتح" وكان عمروس هذا في زمن محمد بن محبوب.

وأما انتشاره بعمان فأمر لا يخفى وسير الأئمة فيها مشهورة وأخبارهم معلومة وقد كانت من المسلمين بقية في "منصورة" من بلاد السند وكان للإمام راشد بن سعيد – رحمه الله تعالى – إليهم سيرة وأخبارهم شاهرة ، ومن علمائهم بمكة أبو الحر على بن الحصين العنبري وأبو عبيدة عبد الله بن القاسم في عدة مشايخ ومن أفضالهم بمكة الفضل بن جندب وأما البصرة فقد كانت لنا مدينة العلم ، حتى ضربوا لذلك مثلاً ؛ فقالوا: "باض العلم في المدينة وفرخ بالبصرة وطار إلى عمان.

ومن أئمة العلماء ومشاهيرهم أبو الشعثاء جابر بن زيد وهو أول من ألف في الإسلام في ما يظهر من الحال لأن تواريخ المولفة كلهم بعدة وفي كشف الغمة أن ديون كان حمل خمسة أجمال وقد احتوى علية أمير بغداد فلم يخرج إلى أهله ومنعة علماء مذهبه من إخراجه حسدا لهذا والله أعلم بما كان علية من الحال بعد ذلك وجابر هذا أخذ العلم عن سبعين بدريا وعن ابن عباس وعائشة أم المؤمنين وقال لقيت سبعين بدريا فحويت ما بين أظهرهم حتى لقيت البحر فكدت أن أغرق يعني ابن عباس ، وكان لابن عباس فيه ثناء جميل وشهادة بالعلم الواسع ولولا الإطالة لذكرت بعض ذلك.

وقد أخذ عن جابر هذا "ضمام بن السائب" و"أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة" و"حيان الأعرج" و"أبو نوح صالح بن الدهان" ، وقد تفجرت ينابيع العلم والحكمة من هؤلاء التلامذة ، وكان أوسعهم علما أبو عبيدة وضمام ، وقد أنتشرت العلوم في مشارق الأرض ومغاربها عن أبي عبيدة وعنه أخذ حمله العلم إلى عمان المغرب وخراسان وحضرموت ، ولولا إيثار الاختصار في هذه الرسالة لذكرت لك طرفا من أخبارهم الغراء ، ولمعة من سيرهم الزهراء.

وتلامذة أبي عبيدة لا يحصون عددا وأجلهم قدرا "الربيع بن حبيب البصري" وإليه انتهت رياسة العلم بعد أبي عبيدة ، ثم إلى "أبي أيوب وايل بن أيوب الحضرمي" ثم إلى "محبوب بن الرحيل" ، ثم أنتقل العلم إلى عمان بواسطة حملته الأربعة "منير بن النير" و"بشير بن المنذر" و"موسى بن أبي جابر" و"محمد ابن المعلا" ، وإلى خراسان بواسطة "أبي يزيد الخوارزمي" و"هاشم بن عبد الله الخراساني.

ومن علماء خراسان "نصر ابن سليمان" و"محمود بن نصر" و"أبو منصور" و"أبو غانم بشر ابن غانم" وغيرهم.

وحمل العلم عن أبي عبيدة إلى المغرب "أبو الخطاب المعافري" و"عبد الرحمن بن رستم" و"عاصم السدراتي" و"اسماعيل بن درار" وغيرهم ، ثم كثرت علماء المذهب بالمغرب وعمان وحضرموت فلا يحصون عدد أراضي الله عنه أجمعين.

وكان فيهم الأئمة الراشدون المرشدون البائعون أنفسهم في رضا ربهم الراغبون في الآخرة الهاربون عن الدنيا.

ومن أئمتهم بالعراق "عبد الله بن وهب الراسبى" إمام أهل النهروان ثم "المرداس بن حدير" الشهير بأبي بلال رضي الله عنه وعنهم وكانت له سير وأخبار وكرامات تذهل العقول.

وكان من أئمتهم بحضرموت طالب الحق "عبد الله بن يحيى" و"سليمان بن عبد العزيز" و"حمد بن سليمان".

وكان من أئمتهم بالمغرب "أبو الخطاب المعافري" و"أبو الحاتم الأول" و"عبد الرحمن بن رستم" وابنه "عبد الوهاب" وابنه "أفلح" وابنه "محمد" وابنه "يوسف" وهو حاتم الثاني.

ومن أئمتهم بعمان "الجلندي بن مسعود" و"الوارث بن كعب" و"غسان بن عبد الله" و"عبد الملك بن حميد" و"المهنا بن جيفر" و"الصلت بن مالك" و"الخليل بن شاذان" و"راشد بن سعيد" و"راشد بن الوليد" و"سعيد بن عبد الله" و"ناصر بن مرشد" ، وغيرهم من أئمة العدل لا يحتمل ذكرهم هذا الموضع لإيثار الاختصار ، وقد كانوا جميعا في أمثال أبي بكر وعمر عدلا وفضلا لولا سابقة الصحبة ، جزى الله الجميع عن الإسلام خير جزاء.

ولما أراد الله تعالى أن ينفذ أمره في من شاء من الناس بسابقة القضاء ، طوى هذا المذهب من كثير من البلاد بموت أهله وانقراض علمائه في تلك النواحي ، فطال على الجاهل الأمد وأتاهم من أضلهم عن الحق وأزلهم عن الصدق ، وقيض على كل ناحية شيطانا بل شياطين عديدة فتركوا ما كان عليه أسلافهم من واضح الحق وصريح الصدق إلى ما وسوس به الشيطان إلى أوليائه شياطين الإنس والجن ، يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، فذهب هذا الدين من مكة والبصرة وخراسان واليمن وحضرموت وبقي في عمان والمغرب

وزنجبار ومصر ، ثم انتقصت أطرافها أيضا فلم يبق إلا في النواحي اليسيرة ، فظهر بذلك صدق الحديث بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فالحمد لله على هذه الغربة والشكر له على هذه القلة فإن المؤمنين قليل في أول الزمان وآخره قال تعالى: ((وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين)). وقال: ((إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات)) وقال: ((وقليل من عبادي الشكور)).

وناهيك بأحوال الأنبياء مع قومهم فانظر إلى حال نوح في قومه وقد أرسل إلى أهل الأرض كافة فقال تعالى: ((وما آمن معه إلا قليل)). وإلى حال إبراهيم علية السلام فإنه بعث وحيدا فريدا فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ، وإلى حال لوط علية السلام حين أرسل إلى القرى فإن الله تعالى يقول فيه: ((وما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين)) ، والمراد به بيت لوط علية السلام. وإلى حال موسى علية السلام فإنه خرج ببني إسرائيل وعند ذلك قال فرعون إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وقد خاف في أول أمره من فرعون كما قال ففرت منكم لما خفتكم ، وكذلك أحوال غالب الأنبياء كزكريا ويحيى وغيرهما.

وانظر إلى حال سيدهم محمد صلى الله عليه وسلم وإلى سيرته من أول أمره إلى آخره ، وإلى عدد أصحابه والمشركون يومئذ لا يحصون عددا ، وإن ظهر الإسلام في حال ليكون حجة على الناس فإنه يختفي في أحوال كثيرة وأزمان طويلة ، وناهيك بأزمنة الفترة بين الأنبياء وأن الحق لم يظهر ظهورا تاما بعد نبينا محمد صلى الله علية وسلم إلا سنين يسيرة ثم تولى الأمر الظلمة من أهل الجور ؛ فتركوا الهدى وعملوا بالهوى والحق معروف والسيرة محفوظة والطريق بين الصراط مستقيم ولكن من يضلل الله فلا هادي له.

فلما تفرقت الآراء وتشعبت الأهواء وعطلت الأحكام واتخذ كتاب الله دغلا ومال الله دولا وعباد الله خولا ؛ غضب المسلمون لدينهم وأظهروا الحق في أمكنتهم على حسب ما أشرت إلى ذكره في ما تقدم. ولما انطمست أعلام المذهب من غالب البلاد كما أسلفنا ذكره اختفى على الأغبياء الجهلة ما نحن علية من الحق الواضح ، واشتغلوا بالسب والطعن ولا يضر المسلمين شيء من ذلك ، فقد قيل لنبيهم عليه الصلاة والسلام انه ساحر ومجنون ، وقيل انه كاهن وانه شاعر فلم يضره ذلك ، بل زاده رفعة عند ربه صلوات الله عليه وسلامه ، ولنا فيه أسوة حسنة.

وقد بلغني أن بعض المخالفين يطعن في المذهب بقلة الكتب في زعمه وذلك لقلة اطلاعه وقصور باعه ، و لم يعلم الجاهل المغرور أن هذا المذهب كان إلى هذه الفضيلة وغيرها من الفضائل أسبق ، وأنه بكل خير أولى وأحق.

قدمت لك ذكر ديوان جابر بن زيد ، وأنه خمسة أحمال ، وأنه قد أدرك الصحابة وأخذ عنهم العلوم وقد مات في سنة ست وتسعين من الهجرة كما في كلام "السيد مصطفى" المتقدم أو في سنة مائة وثلاث سنين كما في "مروج الذهب" للمسعودى.

وأرسل الإمام عبد الوهاب – رضي الله عنه – ألف دينار إلى المشرق إلى إخوانه بالبصرة أن يشتروا له بها الكتب ، فلما وصلهم الألف اشتروا بها قرطاسا فنسخوا له فيه وقر أربعين جملا كتبا فلما بلغته تشمر وجد لقراءتها ليلا وبعض أوقات النهار وقيل كان يجرد ثيابه إلا السراويل فختمها فقال الحمد لله إذ وجدت جميع ما فيها محفوظا عندي و لم أستفد منها إلا مسئلتين ولو سئلت عنهما لأجبت فيهما قياسا كما رسما في الكتب.

وقال أحمد بن محمد بن بكر – رضي الله عنهم – كنت أقرأ على الشيخ سعدون فجازت مسئلة الاقلف ، قال فيها قولان و لم ينسبها ودخلت إلى الديوان ؛ وكان بجبل نفوسة ديوان اشتمل على تآليف كثيرة فدرستها أربعه أشهر لا أنام إلا في ما بين أذان السحر إلى صلاة الفجر وتأملت ما فيها من تأليف المشارقة من أصحابنا فإذا هي نحو ثلاثة وثلاثين ألف جزء ، فتخيرت أكثرها فقرأته.

ولما وفد "أبو غانم بشر بن غانم الخرساني" على الإمام "عبد الوهاب" ومعه مدونته المشهورة في الفقه التي رواها عن تلامذة أبي عبيدة وجاز على جبل نفوسة واستودع عمروسا نسخة منها ، وأخذ في نسخها وأخته تملي عليه ويلازم الموضع حتى تدركه الشمس ، فينتقل حرصا في أحياء العلم فما رجع بشر إلا وقد استكمل نسخها وهو في اثني عشر جزءا.

ولما وقع ما وقع بتيهرت وأحرقت كتبها بقيت نسخة عمروس تنتفع بها الإباضية في المغرب وذلك ببركة عمروس وحسن نيته فهذه المدونة أخذت عن تلامذة أبي عبيدة ، وأبو عبيدة كان قد توفى – رحمة الله عليه – في دولة أبي جعفر المنصور ، فهذه نبذة من مجمل القول في بيان كتب المذهب ، وأما تفصيلها كتابا كتابا فذلك مما لا سبيل إليه لاستيلاء الزمان على غالبها وسأذكر لك بعضا مما يحضرني ذكره.

فمن ذلك كتاب الربيع بن حبيب المعروف بالمسند وهو عندنا أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى ، لأن فيه سند الأحاديث عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس أو غيره من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلا سندا من صحيح البخاري ، رتبه الشيخ أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم أبوابا ، وشرحه الشيخ أبو ستة شرحا شافيا كافيا ومنه استمد الأصحاب قواعد الفقه وعليه بنوا غالب فروعهم.

وكتاب ضمام رفع فيه الأحاديث عن جابر أيضا وحفظه عن ضمام أبو صفرة ، وكتاب أبي سفيان محبوب بن الرحيل ، وكتاب محمد بن محبوب يذكرون أنه سبعون جزءا ، قال البرادي:" رأيت منه جزا واحداً" ، وكتاب الخزانة تأليف بشير بن محمد بن محبوب بن الرحيل ، سمعت شيخنا محمد بن مسعود يذكر أنه في سبعين سفرا ،وكتاب البستان في الأصول لبشير أيضاً ، وكتاب الرضف في التوحيد وحدث العالم وغير ذلك لبشير أيضا وكتاب المحاربة لبشير أيضاً.

وتفسير القرآن للشيخ هود بن محكم الهوارى في سفرين كبيرين ، والتفسير الكبير لأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم الوارجلانى ، قال أبو القاسم البرادي: "وهو كتاب عجيب رأيت منه في بلاد أريغ سفرا كبيرا لم أر ولا رأيت قط سفرا أضخم منه ولا أكبر منه وحزرت انه يجاوز سبعمائة ورقة فيه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران وحزرت أنه فسر القرآن في ثمانية أسفار مثله ، فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدور في لغة أو اعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو في العلوم ، فإذا ذكر آية يقول قولة تعالى الخ ، فأول ما يذكر اعراب الآية و يستقصيه ، ثم يقول اللغة فيستقصي جميع تصاريف الفعل من الكلمة ثم الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسوق الرواية من كتاب الربيع ابن حبيب المعروف بالمسند ، ثم يسرد فيه السند أبو عبيدة عن جابر ويذكر الحديث ، ولقد استقصى الاختلاف الذي في الإمام في قوله) إني جاعلك لناس إماما) فذكر مقالة الرافضة والغالية وذكر مقالات النكار وغيرهم من جميع الفرق ولعمري أن فيه لعلوما جمة".اهـــ كلامه

وكتاب "العدل والإنصاف في أصول الفقه" لأبي يعقوب الوارجلانى أيضا وهو ثلاثة أجزاء في مجلد ضخم ؛ أوسع فيه المجال وأشبع فيه المقال ، وكتاب "الدليل والبرهان في أصول الدين" لأبي يعقوب أيضا وهو ثلاثة أجزاء أيضا ، غير انه يجعل في مجلد واحد.

وكتاب الإمام العادل سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب رضي الله عنهم أجمعين ، وكتاب "الضياء" لأبي إبراهيم سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي في أربعة وعشرين مجلداً ، أجمع فيه أصول الشرع وفروعه ، وكتاب "الكفاية" تأليف محمد بن موسى الكندي في أحد وخمسين مجلدا ، وكتاب "جلاء البصاير" في الزهد والمواعظ لمحمد بن موسى أيضا.

وكتاب "بيان الشرع" تأليف أبي عبد الله محمد أبن إبراهيم بن سليمان في اثنين وسبعين مجلدا ، ويقال إنه في ثلاثة وسبعين مجلدا ، وأنه ذهب منه مجلد في الزكاة فأبدله بعض العلماء من بعده ، وهو أيضا جامع لأصول الشرع وفروعه ، وإنه لكتاب ظافر البركة عم نفعه الآفاق ومنه استمد أهل الوفاق ، ولمؤلفه أيضا القصيدة المعروفة بالنعمة وهي رجز في أصول الشرع وفروعه وهي طويلة جدا ، وله أيضا رسائل آخرى ، وله القصيدة المعروفة بالعبيرية في وصف الجنة ، اعتنى بشرحها جماعة آخرهم إمامنا القطب متعنا الله بحياته ، وشرحه أبسط الشروح وأكترها تحقيقا.

وكتاب "المصنف" تأليف أحمد بن عبد الله بن موسى الكندي في أحد وأربعين مجلدا ، ويقال أن صاحب "الكفاية" وصاحب "بيان الشرع" وصاحب "المصنف" كانوا بنى عم قال بعض من جاء من بعدهم: ((ووجدت أن مؤلف "بيان الشرع" قبل صاحب "الكفاية" ، وصاحب" الكفاية" قبل صاحب "المصنف")). قال: ((ومؤلف "بيان الشرع" محمد بن إبراهيم بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن المقداد الكندي السمدي ، ومؤلف "الكفاية" محمد بن موسى بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن المقداد الكندي السمدي ، ومؤلف "المصنف" أحمد بن عبد الله بن موسى بن سليمان بن محمد بن عبد الله بن المقداد الكندي السمدي الترى)).

وكتاب "التخصيص في الولاية والبراءة وتخصيص الآيات الواردة في ذلك" وهو لأبي بكر أحمد بن عبد الله صاحب "المصنف" ، وكتاب "الجوهري المقتصر" لصاحب المصنف أيضا ألفه في أصول الكلام ، سماه بذلك لأن السبب في تأليفه الكلام في قسمة الجوهر الفرد ، وكتاب "الاهتداء" له أيضا صنفه في إفتراق أهل عمان إلى نزوانية ورستاقية ، وأطال فيه الاحتجاج بين الفريقين وركبه على قواعد مبتكرة وفروع معتبرة وأوسع فيه المجال وأطال فيه الجدال ، وكتاب "التسهيل في الفرايض" له أيضا وهو في حجم صغير ، وكتاب" سيرة البررة" له أيضا ألفة في الرد على من طعن في سيرهم ، وكتاب "التيسير" له أيضاً ألفه في النحو ، ويذكر في بعض مؤلفاته أن له

كتاب "الذخيرة" ، و لم نقف عليه و لم ندري فيما إذا ألفه ، غير أنه يحيل إليه معاني غريبة ، ويذكر انه ألفه لأصحابنا من أهل حضرموت.

وكتاب "التاج" لعثمان بن أبي عبد الله الأصم العقري التروى في أحد وخمسين مجلدا ، وله أيضا كتاب "النور" في علم الكلام وكتاب "البصيرة" في الأديان له أيضا ، ووجدت أن له كتابا في الأحكام وأن له كتاب "الأنوار" في الأصول.

وكتاب "الاستقامة" لمفتي الأمة ومنقذها من الظلمة أبي سعيد محمد بن سعيد الكدمى - رضي الله عنه – ألفه في الرد على من خالف سيرة السلف في الحكم على بعض الخارجين في زمان الإمام الصلت بن مالك ، وأوسع فيه القول حتى خرج عن المقصود وصار كتاباً مستقلًا في أصول الدين تحتار فيه الأفكار وتقتصر عن درك كنهه الأنظار ، فصار بركة عامة ونعمه خاصة بأهل الاستقامة وقد أطبق المشايخ قديما وحديثا على الثناء عليه مع ما فيه من طول غير انه تحت ذلك الطول فوائد وتحت كل حرف فرائد ، فأبقوه على حاله كلما تحرك متحرك للاختصار قعدت به همته بعد النظر ؛ فهو كرامة لمؤلفه ونعمة على اتباعه.

وكتاب "المعتبر" لأبي سعيد أيضا ؛ اعتبر فيه الآثار وتعقب به جامع بن جعفر ففصل المجملات وأوضح المشكلات والموجود منه اليوم مجلدان ؛ أحدهما في الأصول والآخر في الطهارات ، ومنهم من يجعله مجلداً واحداً ضخماً ، ويقال انه في تسعة أجزاء والله أعلم بصحة ذلك.

وكتاب الجامع المفيد من جوابات أبي سعيد أيضا ، وهو في مجلدين كبارا ، وكتاب" زيادات الأشراف" لأبي سعيد أيضا ، وذلك انه تعقب كتاب "الاشراف" لأبي بكر محمد بن إبراهيم المشهور بابن المنذر النيسابورى المتوفى في سنة ثلاثمائة وسبعة عشر سنة ، جمع فيه مذاهب الأمة وتعقبه أبو سعيد في كل مسئلة ذكرها فصحح وضعف وقرب وبعد.

وكتاب "الجامع" المشهور بجامع ابن جعفر لأبي جابر محمد بن جعفر الازكوى في ثلاث مجلدات ، وفيه زيادات أبي الحوارى وغيره من العلماء كابن المسبح ، جعلوا زياداتهم في حكم الحواشي وهو كتاب مبارك نافع الخاصة والعامة.

وكتاب "الجامع" المعروف بجامع أبي محمد عبد الله بن محمد بن بركة البهلوى السليمى ، وضع فيه المسائل بأدلتها وصدر بأبواب في أصول الفقه ثم ذكرها بعد ذلك أبواب الفروع ، وكتاب "الشرح لجامع بن جعفر" لأبي محمد أيضا ، وكتاب" "التقييد لأبي محمد أيضاً ، وكتاب "الموازنة" له أيضا ؛ ألفه في موازنة أقوال من خالفه بأقوال من ضل من الأمم ، وله أيضا كتاب "المبتدأ" ، وكتاب "التعارف" ، وكتاب "الاقليد" ، وله أيضا رسائل ... وكتاب "جامع أبي صفرة" من الكتب القديمة جدا لم نظفر بنسخة منه ، وكتاب "الأصغر" كذلك لم نجده أيضاً.

وكتاب "الأكلة وحقائق الأدلة" لنجاد بن موسى المنجى وجدت أنه في خمسة أجزاء ، ولم أجد منه إلا جزءا واحدا ؛ جمع فيه بين أصول الفقه وأصول الدين وحقق فيه مباحث علم الكلام ، وله أيضا كتاب "الإرشاد في الأصول" ، وله أيضا كتاب "الحوالة" ، وله السيرة المعروفة بـــ "سيرة نجاد في الرد على المخالفين" ، وجامع أبي على موسى بن على قاضى المصر وقدوة المسلمين في دينهم.

وكتاب "الايضاح" للقاضي سعيد بن قريش وهو ثلاث مجلدات ، وكتاب "الايضاح" أيضا لأبي زكريا يحيى بن سعيد الهجارى في أحكام القضاء وما يحتاج إليها أظنه في مجلدين وقفت على مجلد منه ، وكتاب "الايضاح" أيضا لأبي ساكن عامر بن على الشماخي المغربي في أربع مجلدات وهو كتاب في غاية الحسن رد فيه الفروع إلى الأصول ، وعليه حواشي عن أبي سته وغيره من المتأخرين ، وله أيضا العقيدة المعروفة بـــ "الديانات" واختصره الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم وزاد عليه كتابا وسمى الجميع كتاب "النيل".

وكتاب "قواعد الإسلام" للشيخ إسماعيل بن موسى الجيطالي وهو في غاية الحسن أيضا ، وللمتأخرين عليه حواشي واختصار ، وله أيضا كتاب "القناطر" في وصف طريق الآخرة في ثلاث مجلدات ، وله أيضا "شرح نونية أبي نصر فتح بن نوح" في أصول الدين في ثلاث مجلدات ، وله أيضا كتاب "الفرائض" المشهور وعليه حاشية لبعض المحققين ، وله أيضا" مناسك الحج".

وكتاب "أبي مسئلة" لأحمد بن محمد بن بكر المغربي في الأديان والأحكام مختصرا ، أسماه بذلك لأن أبا عبد الله محمد بن سليمان النفوسي كتب إليه من ابديلان أن يضع تأليفا مختصرا في الفروع ؛ فرأى في منامه أن قائلا قال له: ((أذكر أبا مسئلة)) ، فسمّوه أبا مسئلة ، وأبو محمد يسميه "الجامع" وهو في جزأين ، وله أيضا "أصول الأرضين" في ستة أجزاء ، وله أيضا كتاب "القسمة وتبين أفعال العباد" ثلاثة أجزاء ، وله أيضا كتاب

"الألواح" مات عنه وترك في الواحه في بلد يسمى جلو ، وله أيضا "سيرة الدماء" قال أبو القاسم عبد الرحمن صنف في آخره عمره تصنيفا في خمسة وعشرين جزءا ، ولبعض المتأخرين على أبي مسئلة حواشي.

وكتاب "دعائم الإسلام" لأبي بكر أحمد بن سليمان بن عبد الله بن أحمد بن الخضر بن سليمان الشهير بابن النظر ، نسب إلى قبيلته بنى النظر وهو من أهل سمائل ، والدعائم قصائد طوال في أصول الدين والفقه في كل باب منه قصيدة طويلة على قوافي متنوعة وأبحر متعددة ، ويجد أنه ذهب منه أربع قصائد في الأحكام وقصيدة في الصلاة وقصيدة في الولاية والبراءة ، وقد شرحه رجال منهم محمد بن وصاف الترزي في مجلدين كبيرين سماه" الحل والاصابة" ، وأحمد بن عبد الله الرقيشي الأزكوى في مجلدين أيضا سماه "مصباح الظلام على دعائم الإسلام" ، وأبو القاسم إبراهيم البرادي و لم يتمه سماه "شفاه الحائم على بعض الدعائم" ، ثم تناوله البحر الزاخر والبدر الباهر الذي يقال في حقه كم ترك الأول للآخر قطب الأئمة وعالم الأمة محمد بن يوسف أطفيش المغربي فشرحه شرحا كافيا شافي.

ولابن النظر أيضا اللامية المشهورة من بحر الرجز وقد شرحها الكتاب الا البرادي وأفردوها في مجلد ، وجعلها القطب المغربي في أربع مجلدات استقصى فيها بحوث الأدب والمعاني والمنطق والسير وأتى بما لم يأت به غيره.

ولابن النظر أيضا مؤلفات مذكورة في ترجمته لم يوجد منها شيء في زماننا لان الجبار خردلة بن سماعة لما قتله أحرق خزانة كتبه ، ومما ذكروا عنه من الكتب كتاب" قرى البصر في مجمع المختلف من الاثر" في أربع مجلدات لم يوجد بعد الحرق إلا مجلد واحد منه وهو ضخم ، وكتاب "سلك الجمان في سير أهل عمان" في مجلدين لم يوجد منه بعد الحرق إلا تسعة كراريس ، وكتاب "التصميد في التقليد" في مجلدين أيضاً ، والله المستعان.

وكتاب "البصيرة" لصالح بن الوضاح في مجلدين ، وجامع أبي الحوارى في الاديان والاحكام مجلد كبير ، وله أيضا سيرة طويلة إلى أهل حضرموت تتضمن جوابات لما سألوه عنه من أحداث عمان وغيرها.

وكتاب "المنهاج" لخميس بن سعيد بن علي الرستاقي في أحد وعشرين مجلدا ، وكتاب "مراهم القلوب في مناجاة المحبوب" تأليف محمد بن أحمد بن إبراهيم في الزهد والمواعظ ، وكتاب "الإيجار" تأليف أحمد بن خليل السيجاني ، وجامع أبي قحطان خالد بن قحطان في مجلدين ، وكتاب الأشياخ جمع ما عن الأشياء في المعسكر في رباط العدو وقفت منه على مجلد الأحكام.

وكتاب "الرهاين" في رهاين الإمام وأحكامها ، وكتاب "الرضاع" في أحاكم الرضاع في مجلدين يذكر في ترجمة ابن النظر أنه لجده قاضي القضاة عبد الله بن أحمد ، وكتاب" الأحداث والصفات" تأليف أبي المؤثر الصلت بن خميس الخروصي ذكر فيه الأحداث الواقعة في أيام الصلت بن مالك وله أيضا كتاب "البيان والبرهان".

وكتاب "الإمامة" تأليف أبي المنذر سلمة بن مسلم بن إبراهيم صاحب الضياء وله أيضا كتاب "الأنساب" ، وكتاب "مفتاح الشريعة" تأليف محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد الشجبي ، وكتاب "الكشف والبيان" تأليف محمد بن سعيد القلهاتي العماني الأزدي في مجلدين ومنهم من يجعله في مجلد ضخم ألّـــف المجلد الأول منه في التوحيد والسير والثاني في فرق الأمة.

وجامع أبي الحسن علي بن محمد البسياني في مجلد ضخم ومنهم من يجعله في مجلدين سلك فيه مسلك أبي محمد في قرن المسئلة بدليلها من الكتاب والسنة وهو في الأديان والأحكام ، وله أيضا المختصر المشهور بمختصر البسياني ، وله أيضا السيرة الكبيرة المشهورة بسيرة البسياني ذكر فيها بعض الفرق وأحكام المختلفين وحكم الإمامة ، وله غيرها سير عديدة.

وكتاب "مختصر الخصال" للإمام الزاهد المجاهد الشاري أبي اسحاق إبراهيم بن قيس بن سليمان الحضرمي الهمذاني وضعه على وضع غريب لم يسبق على مثاله حصر الشريعة في أبواب والأبواب في خصال وقعد القواعد وضبط الضوابط وهو مشهور منتشر يشهد حاله على وضعه ، وكتاب "الصلاة والصلة" لعمر بن علي المعقدي الوبلي الرستاقي وله أيضا "زهرة الأدب".

وكتاب "مختصر العدل" في أصول الفقه لأحمد بن سعيد الشماخي المغربي اختصر فيه العدل والإنصاف وشرحه شرحا مختصرا أيضا ، وشرح القطب الشرح فأطال وهو في مجلدات ، وله أيضاً كتاب "السير المغربية"

ألفه علماء المذهب من أهل العراق والمغرب وذكر فيه بعض أخبارهم وكراماتهم ، وله أيضا شرح مرج البحرين في علم المنطق والهندسة والحساب والمتن لأبي يعقوب .

وكتاب "الموجز" لأبي عمار عبد الكافي في أصول الدين والرد على المخالفين ، وله أيضا " شرح الجهالات " سفر ، وله أيضا كتاب "الفرائض" وكتاب " اختلاف الفتيا " من تأليف أصحابنا أهل جبل نفوسة كتاب عمروس بن فتح وفي السير المغربية ان عمروسا بعث اليه بعض الاشياخ المتكلمين من أهل فزان أن يؤلف له كتابا في الأصول فكتب إليه الكتاب المعروف بالعمروسى وكتب إليه رسالة فلما رآه الفزاني وهو الذي وضع الكتابين المعروفين بأصول الكلام قال النفوسي أقوى مني.

وكتاب "اللقط" قال البرادى وقفت على أربعة في أربعة أسفار كلها لأهل الجبل ، وكتاب الجناوى في سفرين ذكره البرادى أيضا ، وكتاب "الوضع" يقال أن مؤلفه يحيى الجناوني وقيل لا يدرى مؤلفه لأنه أخفى اسمه ليعظم أجره وخشى عليه أبو سته واختصره مع حاشية القطب وزاد عليهما.

وجوابات الأئمة عبد الوهاب وابنه أفلح وابنه محمد بن أفلح بن عبد الوهاب سفر تام ، وكتاب الشيخ أبي سليمان داود بن يوسف سفر ، وكتاب الشيخ أبي الربيع سليمان بن يخلف في الكلام مجلدان وكتاب الشيخ أبي خزر في الكلام وكتاب الشيخ أبي زكريا يحيى ين أبي بكر في السير وهو المعروف بكتاب "المشايخ" وهما مجلدان ، وكتاب "الاشياخ" المعروف بديوان الاشياخ في ستة أسفار صغار أو ثلاثة كبارا ، وكتاب السؤالات لأبـــي عثمان وعليه لبعض المتأخرين حواشي ، وكتاب الشيخ تبغورين بن عيسى في الكلام ، وله أيضا كتاب " الجهالات " في الكلام ، وله أيضا كتاب " الأدلة والبيان " في أصول الفقه ، والكتاب المعروف بـــ" المعلقات في أخبار أهل الدعوة " ، قال البرادي لم أعلم مؤلفه ، وجوابات الشيخ أبي يعقوب يوسف بن خلفون ، ورسالته إلى أهل جبل نفوسة ، وكتاب" الطبقات" لأحمد بن سعيد الدرجيني ، وكتاب "المناسك" لأبي زكريا يحيى الابدلاني.

فهذا أكثر ما حضرني ذكره من أسماء الكتب وقد تركت بعض ما حضر لخوف السآمة والملل، و لم أذكر شيئا من تأليف المتأخرين كأبي نبهان ومن قبله من علماء دولة اليعاربة إلا " المنهاج " فإن صاحبه قبل الدولة المذكورة وإنما كان أولهما في زمانه وهو القاضي الأكبر للإمام ناصر ، وكذلك لم أذكر العلماء الذين بعد هذه الدولة لا من أهل المشرق ولا من أهل المغرب إلا ما أشرت إليه من بعض الشروح لبعض الكتب القديمة أو نحو ذلك كاختصار الإيضاح.

وإن في ما تركت من الكتب المتأخرة لشيئا بذهول العقول ويحير الأفكار من كتب التفسير والحديث والأصول والكلام والفقه والأدب وغير ذلك من الفنون الكثيرة ، وإنما لم أذكر شيئا من ذلك لأن الطاعن قد طعن علينا في زعمه بكثرة التأليف عند المتأخرين منا دون المتقدمين حتى عد ذلك من أشراط الساعة حيث اطلع على ما لم يطلع عليه من قبل فلذا ذكرت له ما أمكن ذكره من الكتب قديمة دون غيرها وأكثر ما ذكرنا سابق على تأليف كتب مذهبه التي يفخر بها.

ثم انا نقول له إن كان كثرة التأليف من أشراط الساعة كما زعمت ، فإنكم قد شاركتمونا في ذلك أيضا ، وإن كان افتخارك بكثرة الكتب التي نشرتها المطابع فليست كلها لأهل مذهبك وإنما لهم البعض منها ، ثم إن منها ما تمجه الأسماع وتنفر عنه الطباع ويتحاشى عن النظر فيه أهل المروات كرجوع الشيخ إلى صباه والإيضاح في النكاح للسيوطي وما كان في مثل هذا المعنى وهي كثيرة لا تحصى عددا.

فإن كان الإفتخار بهذا ونحوه فمذهبنا بحمد الله خال منه ونحن نسقط عدالة القارئ فيه فكيف بالمؤلف فبئس الفخر ، وأما الكتب الجليلة القدر فإنها قليلة عندهم وإن كثرت فإنما هي من كثرة أهل المذاهب إذ ليست لأهل مذهب واحد ، ولو لم يكن لنا من المؤلفات شئ لكان جوابنا له أن نقول ليس العلم في الدفاتر وإنما العلم في الصدور.

قال الله تعالى ((بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم)) و لم يقل في دفاترهم

والله در القائل:

إذا لم تكن حافظا واعيـــا *** فجمعك للكتب لا ينفـــــع
أتنطق بالجهل في مجلس *** وعلمك في البيت مستودع

وقال آخر:

علمي معي حيث ما يممت يتبعني *** بطني وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي *** أو كنت في السوق كان العلم في السوق

و لم يكن في صدر الإسلام من الصحابة تأليف بل كانت الرجال تنقل أحكام الشريعة في صدورهم وقد عرفوا مأخذها من الكتب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله للقراء فهم قراء كتاب الله سبحانه وتعالى والسنة المأثورة التي هي في غالب موارده تفسير له وشرح.

وقد كره بعضهم كتابه العلم واستدل بما روي عن أبي سعيد الخدري أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه العلم فلم يأذن له ، وروي عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة وقال إنما ضل من كان قبلكم بالكتابة ، وجاء رجل إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال: إني كتبت كتابا أريد أن أعرض عليك ، فلما عرض عليه أخذه منه ومحاه بالماء، وقيل له: لماذا فعلت ، قال: لأنهم إذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم ، قالوا والكتاب مما يزاد فيه وينقص ويغير والذي حفظ لا يمكن تغييره لأن الحافظ يتكلم بالعلم.

ولو لم يكن لنا شئ من التأليف أصلا لكان لنا حجة بهذا السلف الصالح ولو كان لنا من الكتب شئ يسير فقط لاحتججنا عليهم بقول ابن خلدون في مقدمة تاريخه حيث قال: " أعلم أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها ولا يفي عمره بما كتب في صناعه واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا بد دون رتبه التحصيل " هذا كلامه.

مع انا نعترف بان ضبط العلوم قد كان بعد زمان الصحابة في الكتابة لقوله صلى الله عليه وسلم: "العلم صيد والكتابة قيد وأرحمكم الله تعالى علومكم بالكتابة الحديث".

ولأن الصحابة قد تفرقوا بعد انتشار الإسلام في غالب البلدان وصعب النقل عن كثير منهم حدثت الفتن واختلاف الآراء ، وكثرت الفتاوى والرجوع إلى الكبراء وكان ذلك مانعاً لكثير من الناس من تحصيل العلوم ، ومن هاهنا احتيج إلى التدوين وتقييد العلم بالكتابة فكان في ذلك مصلحة عظيمة وكان لنا منه الحظ الأوفر والنصيب الأكبر ، وإن خفي ذلك على المخالف ، وما أحسن قول الشاعر:

وإذا خفيت على الغبي فعاذر *** أن لا تراني مقلة عمياء

ولولا خوف الإطالة لذكرت لك من براهين المذهب وكراماته ما يدهش العقول ، ولئن يسر الله تعالى بمنه وأطال في العمر بفضله لأوضعن سيرة تشتمل على منشأ هذا المذهب من أصله وتكشف عن فرعه وفصله وتنبئ عن استقامته وعدله من أول الزمان إلى آخره ، حتى يرى الغر الجهول أن مذهبنا على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، لا ملجأ من الله إلا إليه ، ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

هذا آخر ما يسر الله كتابته في هذه الرسالة اليسيرة في ليلة ستة وعشرين من شهر محرم سنة 1323 ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

========== *** ==========

كتبه العبد الفقير الراجي رحمة ربه القدير/ عيسى بن عبد الله بن عيسى بن سعيد بن بشير البشري بيده.

========== *** ==========

تم الكتاب تكاملت *** حال السرور لصاحبه
وعفى الإله بمنــه *** وبفضله عن كاتبـــه